أولاً : الكلمة الافتتاحية قضية العلاقة بين الفكر والعمل

للأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق (*)

- **تمهيد : نظرة عامة :**

قضية العلاقة بين الفكر والعمل، أو النظر والتطبيق قضية قديمة قدم الفكر الفلسفى ذاته. والفلسفة اليونانية كانت فلسفة تهتم بالنظر بدرجة كبيرة. وأصحاب الاهتمامات النظرية يجعلون من المعرفة هدفًا للحياة، ويعتبرون الحياة وسيلة للحصول على المعارف فى حين أن هدف الإنسان العملى هو الحياة، والمعرفة لديه وسيلة لخدمة الحياة.

وربما كان سقراط يبدو فيلسوفًا نظريًا يعتبر العلم مساويًا للفضيلة، ولكنه كان يمارس دوره فى أوساط الناس من أجل دفع عجلة الحياة على أسس أخلاقية سليمة. وقد حاول أفلاطون تطبيق نظرياته فى دنيا الواقع فاصطدم بالفكر السائد الرافض لمثاليته فكان نصيبه فى التطبيق الفشل التام.

وقد ظلت القضية قائمة حتى يومنا، وأعتقد أنها ستظل قائمة طالما كان هناك فكر فلسفى. والسؤال المطروح دائمًا هو: هل نتفلسف من أجل التفلسف أم من أجل خدمة الحياة والمجتمع؟ ولم يقتصر الأمر فى هذا الصدد على الفلسفة وحدها وإنما انسحب على كل الإنتاج الفكرى بصفة عامة. فالمشكلة قائمة كذلك فى الأدب وفى الفن وفى غيرهما من مجالات فكرية أخرى.

ولكن يبدو أن المجتمعات المعاصرة لم تعد تحتمل هذا الترف الفكرى المتمثل فى الفكر النظرى والذى يبدو بعيدًا عن حياة الناس واهتماماتهم، الأمر الذى يعنى أن يكون لكل الأنشطة الفكرية للإنسان هدف أصيل يتمثل

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف. ورئيس الجمعية الفلسفية المصرية ووزير الأوقاف.

فى خدمة الحياة وتطويرها والارتقاء بها، وإلاّ فإن المجالات النظرية البحتة التى لا تريد أن تنزل إلى دنيا الناس ستحكم على نفسها بالفناء والزوال.

وبهذه المناسبة نحيى قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة على اهتمامه بهذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا، الأمر الذى دفعه لأن يجعل من توظيف الفلسفة فى خدمة قضايانا القومية فى ظل التحديات المعاصرة موضوعًا للمؤتمر الدولى الأول للقسم. وهذه بداية لسلسلة مؤتمرات قادمة تبشر بالخير وتخرج بالفلسفة من الدائرة الضيقة التى أريد لها أن تُحْصَر فيها، ولا أقول التى حصرت نفسها فيها، لأن طبيعة الفلسفة غير ذلك تمامًا. وإن إلقاء نظرة سريعة على عناوين البحوث المقدمة إلى المؤتمر تدل على أفق واسع وثراء فكرى يغطى كل الأبعاد.

وإذا كانت أقسام الفلسفة، التى من مهامها الجليلة حمل رسالة التنوير فى المجتمع، لا تقوم بمواجهة التحديات المعاصرة، فمن الذى سيتولى القيام بهذه المهمة؟

وحتى يمكن أن ننتقل بالفلسفة من النظر إلى التطبيق على نحو سليم أعتقد أنه لابد لنا هنا من خطوتين أساسيتين هما:

أولاً :- الانفتاح على كل الثقافات والحضارات. وهذا الانفتاح يعنى الحوار مع هذه الثقافات للاستفادة مما لديها من إيجابيات.

وقد كان الفيلسوف العظيم ابن رشد سباقًا إلى جعل الإطلاع على ما لدى الآخرين من ثقافات واجبًا شرعيًا يفرضه الدين.

ثانيًا :- النقد الفلسفى للفكر السائد فى المجتمع والفكر الوافد لتبنى ما فيهما من إيجابيات والتنبيه إلى ما يشتملان عليه من سلبيات لا تخدم تطوير فكرنا ولا مسيرة حضارتنا. وهذا ما نبه إليه ابن رشد أيضًا.

• الفلسفة والمجتمع :

وإذا كانت الفلسفة ينبغى أن تكون فى خدمة المجتمع فهل يعنى ذلك أنها لابد أن تغير مسارها الذى سارت فيه منذ القديم؟ أو يعنى أنها لا مفر أمامها من أن تترك مكانها لمجالات أخرى تكون ألصق منها بالمجتمع والتحديات التى تواجهه؟

وهل صحيح أن الفلسفة أهملت فى السابق قضايا المجتمع وهموم الحياة؟ لقد تنبأ البعض فى العصر الحديث بأن علم الاجتماع سيحل محل الفلسفة.

ولكن هل أصبح موضوع المجتمع حقيقة هو الموضوع الشامل فى العصر الحديث؟ ألا يزال الفرد ـ بوصفه جزءًا من المجتمع ـ يحتل مكانه فى بؤرة الفكر كما كان الحال فى السابق أيضًا؟

ألا يدور الأمر ـ كما كان فى السابق أيضًا ـ حول دور أساسى للفرد يستطيع من خلاله أن يشارك مشاركة فعالة فى تشكيل المجتمع عن طريق نظم تربوية هادفة ومن خلال النهوض بالعلم وبالفن، أى من خلال الحضارة؟ إن الحضارة من شأنها أن توفر للفرد أكبر قدر من الحرية يضمن له أن يبدع ويؤثر فى مجتمعه. والحضارة ـ كما قيل بحق ـ من طبيعة الإنسان، بل يمكن القول إن الحضارة هى حياة الإنسان. وجذور الحضارة ـ أى حضارة ـ تكمن فى الدين.

وليس هناك مجتمع قادر على الحياة بصورة حقيقية بدون حضارة ودين؟

صحيح أن مجرد الدراسة لتاريخ الفلسفة والأفكار الفلسفية يمكن أن يكون اشتغالاً بأمور نظرية لا تأتى للحياة إلا بالنفع القليل. ولكن لا ننسى أن الفلاسفة الكبار فى التاريخ قد مارسوا تأثيرًا كبيرًا على حياة عصورهم وعلى العصور اللاحقة أيضًا. ومن خلال ذلك كانوا فاعلين على المستوى الحضارى ومؤثرين على نحو لا تخطئه العين على حياة مجتمعاتهم. وعندما ينادى فيلسوف من الفلاسفة بالفكر النقدى المستقل فإنه بذلك يؤكد ضرورة الارتباط بين الفلسفة والحياة.

وعندما تحدث هيراكليت عن التغيير المستمر للحياة معبرًا عن ذلك بأن المرء لا يستطيع أن ينزل النهر مرتين، لم يكن مجرد فيلسوف نظرى، بل كان فيلسوفًا يعبر عن واقع الحياة المتجددة دومًا. وحتى الفلاسفة الذين عرفوا بفكرهم النظرى الجاف مثل الفيلسوف الألمانى الشهير "كانط" قد اهتم اهتمامًا فائقًا بالمعارف الأساسية للأخلاق والتسامح والسلام والقانون الدولى على نحو يجعل أفكاره فى هذا الصدد تبدو حديثة تمامًا وتجيب على كثير من الأسئلة التى تطرح فى عصرنا الحاضر.

ومن هنا يمكن القول بأنه لم تكن هناك فلسفة حقيقية فى التاريخ عزلت نفسها تمامًا عن الحياة على نحو مطلق.

وعندما نهتم اليوم بتوظيف الفلسفة من أجل خدمة الحياة وترقيتها ـ وهذا أمر ليس محل اعتراض ـ فإنه لابد لنا من إعادة النظر فى الاتهام الموجه إلى الفلسفة بأنها مجرد تأملات نظرية لا تخدم الحياة ولا تحرك المجتمع. فالدراسة المتأنية للمواريث الفلسفية وما كان لها من تأثير ـ وإن كان فى كثير من الأحيان تأثيرًا غير مباشر ـ تبين لنا أن هذا الاتهام فيه كثير من التعميم المجحف، وفيه كثير من الظلم للفلسفة والفلاسفة على مر التاريخ.

ومن ناحية أخرى لا يجوز لأى تطور فلسفى أن يؤكد على مصلحة المجتمع على حساب فردية الفرد الذى هو ـ من ناحية ـ جزء فاعل فى المجتمع، ومن ناحية أخرى سيظل فى بؤرة الاهتمام الفلسفى بما له من جوانب اجتماعية وبيولوجية وعقلية وروحية ونفسية وحضارية .. إلخ. ولا يجوز لنا أن نتجاهل أن إبداعات المبدعين تنطلق أساسًا من عبقرية الأفراد الذين يسبقون عصورهم ويرتادون الطريق لمجتمعاتهم، ويؤثرون بالتالى على حياة هذه المجتمعات فى شتى الاتجاهات.

• خاتمة :

وإذا جاز لنا أن نلخص فى كلمات قليلة بعض ما سبقت الإشارة إليه فإننا نشير إلى أن الفلسفة والحياة يلتقيان فى عقل الفيلسوف المبدع الذى يثرى بتأملاته الفلسفية الإبداعية ليس فقط حياته هو، بل حياة مجتمعه أيضًا. والفلسفة بهذا المعنى تبحث باستمرار عن قضايا جديدة وإجابات جديدة.

وإذا كانت الحضارة من شأنها أن تساعد الفرد عندما توفر له الحرية للتفكير النقدى والإيجابى من خلال نظم تربوية هادفة فإن الفرد من ناحية أخرى يثرى بالتالى حضارته عن طريق فكره وعمله، وعن طريق حياته الخلاقة، ويسهم بذلك فى حيوية هذه الحضارة.

فالطبيعة الحقة للإنسان ـ كما سبق أن أشرت ـ تتمثل فى الحضارة، وذلك على النقيض من الطبيعة المحدودة لبقية المخلوقات. وبهذا المعنى فإن الفلسفة ـ وكذلك الفن والعلم والدين وكل شكل من أشكال الفكر الخلاق والعمل المبدع ـ تعد جزءا لا يتجزأ من الحضارة التى هى الموطن الحقيقى للحياة.